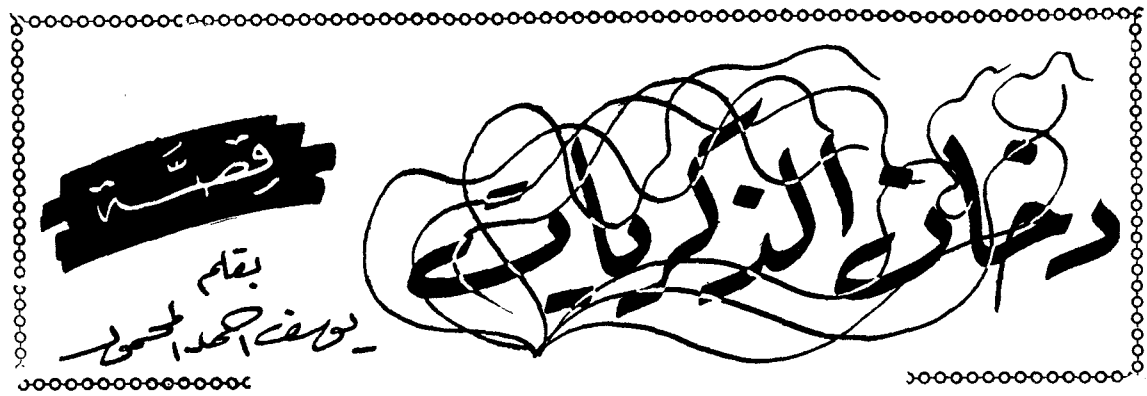

نظرت الي وفي ابتساماتها مالا يعلمه الشقيق الذي عرفها على قائلا :

ـ الاديب الكبير ... الشاعر ...

فقالـــت :

ـ اعـرفـه

ثم التفتت الي بالباقي :

ـ كنا معا ... اظنك لم تنس ؟

ولعل فمها لم يكن كبيرا الا ليضحك هذه الضحكة الكبيرة . وكان الباص قد وصل ، فصعدا اليه ، بينما بقيت انا في مكاني انظر الـــى مؤخرة الباص حينا ، والتفت الى كتفي حينا اخر ، وكان دوائر شبيهـة بالدوائر التي تنبعث من الماء الذي القي فيه بحجر ، كانت تنبعث مـن وراء الباص وتزداد اتساعا ، حتى اتصلت بذلك الماضي الذي لو قدرته بقامتها الرشيقة وباناقة ماترتديه من ثياب وبما تحمله يداها وصدرها واذناها من حلي ... لو قدرته باهداب عينيها التي لها دقة شوك الصبار وبملامحها التي تشبه ادوات الساعة الصغيرة ، لو قدرته بهذه الاشيـاء لبدا ماضيا بعيدا كانه من اجيال سحيقة .!

ولو لم أرها مع شقيقتها .. لو لم تقل « كنا معا » لما عرفـت بانهـا قد ركبت على ظهري اكثر من مرة ، وباني قد رحت وجئت بها في ذلـك المهر الطويل بين صفين متوازيين في تلك القاعة المستطيلة بين الضحك والتصفيق ، وكلما ظننت بان العقاب قد انتهى نهرني المعلم قائلا : « يالله شوطـــا اخـر ... »

وعلى واحدة من تلك الدوائر رأيت معطفها البرتقالي ... واحسست بنعومة جنبيها اللذيـن لا بد لي من امساكهما لئلا تسقط، كمـا احسست ايضا باظافرها التي كانت تفرزها برقبتي التي تمسكني منها !.

كنا في الصف الثالث الابتدائي ... وكان ذلك اول عهدي بالدراسة .

كنا اربعة صفوف في تلك القاعة .. وكانت هي الانثى الوحيدة في صفنا الذي لايقل عن الثلاثين تلميذا .. وكانت المدرسة كلها كأنها ملكها هي ، فشقيقها الكبير رئيس الصف الخامس ، والثاني رئيس الصف الرابـع، وشقيقتها التي تصغرها رئيسة الصف الثاني ، وهي رئيسة الصف الثالث وشقيقتها الكبيرة النحيفة ذات السمرة الكالحة والانف النافر كقرن الموز في أعلى السلة ، كانت يداها تنسج صوفا مختلط الالوان ، وهي تتحدث في قاعة الصف الخامس مع اولئك الشباب الذين يرون بانفسهم طليعـة الجيل المتعلم الذي سيتقدم هذا العام لشهادة السرتفيكا التي كانت هـي قد نالتها بقسميها الافرنسي والعربي منذ سنتين ..

كانت المدرسة تتصل ببيتهم ببوابة صغيرة ، وهي والبيت ملك لمديـر المدرسة الذي يقوم عليهم مقام ابيهم الذي هاجر الى الارجنتين ، بعـد ان نقلهم الى هذه البلدة التي يكثر فيها من يناديهم « ابناء خالتي » ولم ادر مدى صحة تلك القرابة ، ولكن الذي علمته فيما بعد بان جدتهـم لامهم تمت ببعض اصولها الى هذه البلدة .. .

واشقاؤهم هم وحدهم كانوا يرتدون البناطيل القصيرة بين كل اولئك التلاميذ ، كما كنت وحدي الذي ارتدي شروالا ابيض فضفاضا طويـل الذيل ، فيما يجعلني اظهر كالكلب الابيض بين قطيع من الماعز الجبلية .

كانت تجلس في اول مقعد مع انها في الصف الثالث الذي يتأخر حتى منتصف القاعة ، وتجلس الى جانبيها ابنة الجندرمة لطفي وابنة السائق الوحيد في البلدة وهما في الصف الاول ، واذا لم تجلب ابنة الجندرمة معها شقيقتها التي لم تستطع الكلام بعد ، فان هذا المقعد يبقى لهـن وحدهن ، مع ان الصبيان يرتصون عشرة عشرة في كل مقعد ..!

وفي الوقت الذي نكون نحن فيه واقفين كصفوف الحمير امـــام حطحنة مائية في يوم ماطر ، والمعلم ابراهيم ، ينتقل من طالب الى اخـر ناظرا في اذنيه بدقة النحلة التي تنقرى الازهار في سنة مجدبة ومقلبا ثنايا الثياب حول الاعناق ، ثم ناظرا الى اظافرنا .. ونظافة الايدي التي يتراكم عليها الحبر كاننا عمال في مصبغة الف لون ولون ... فـي هذا الوقت تكون هي واقفة بجانب الباب تضحك منا ، كما يضحك منـا رجال تلك الحارة الذين لايزاولون عملا الا المجيء مع الصباح الباكـر الى هذا المقهى الذي يقوم امام المدرسة .. وعندما ينحى منا من ينحى ويؤذن بالدخول ، تكون هي اول من يدخل .

وكان هذا المعلم يطلب اليها والى ابنة الجندرمة ، ان تقفا على المقعـد الاول ، وتنشدان « موطني » و « بلاد العرب اوطاني » و « حماة الديار » ونحن واقفون ننتظر الاشارة بالتصفيق . وبالرغم من صغرهمـا ، فقـد كان انشادهما مؤثرا جدا يملأ اكتافنا بحمى ذات نشوة حماسية مثيرة .. وصار اكثرنا ينشد هذه الاناشيد التي كانت تنشد في مدارس البـلاد لاول سنة ، ليحس فيها بنبرة الصوتين اللذين كان فيهما كل ما في البلاد من حماس لنيل استقلالها ،سواء بطريقة الثورة التي مافتئت تنشب فـي البلاد منذ دخول فرنسا ، وسواء بطريق المفاوضة التي كان يجريها وفـد البلاد في باريس .. ربما في ذلك العام بالذات ..

وهذا المعلم كان اول مايبدأ بالصف الثالث ـ ربما لانها هي فيه ـ وكان « لايسمع » لها الا بالحاح شديد طويل ... اما اصبعها فانها لاتكـاد تخفض كأنها السارية التي يرفع عليها العلم في صدر المدرسة .. فهـي ترفعها في القراءة .. وفي الحساب وفي كل ماتبقى من المواد .. وانكى من هذا انها كانت ترفعها ايضا عندما يعجز احد تلاميذ الصف الرابـع عن الاجابة على اسئلة المعلم ... وكانت تعرف الجواب الصحيح ممـا يجعلها تركب على ظهر الصوان وحرتيش من ذلك الصف .. وفي الصف الثالث ، فقد كانت ترتفع على ظهر « الداعي » اكثر من مرة في التسميعة

الواحدة .. ناهيك عن ظهر الباشا الذي لاتكاد تنزل عنه حتى ترتفع اليه من جديد الى حد جعل المعلم يأمره ان يسمع وهي على ظهره .!

كان ذلك اهانة قوية ، اذ لايكفي ان تحمل على الظهر .. ثم الرواح والمجيء بها بين الصفين ، وانما كانت تقال كلمات دسمة من المعلم ولكن دسمها مر ذليل ، وهذا مادفع الزميل حرتيش ، ولعل هذا اللقب مأخوذ من كثرة حركته ورشاقته في الحركات ، الى الاقتراب ، في اليوم الثاني ، من مقعد الى مقعد حتى صار وراءها مباشرة دون ان يلفت نظر المعلم .. وفي غفلة من الجميع صاح بتقزز : « قمل .. قمل .. قمل .» ثم نهض وبصق ذات اليمين والشمال ..

التفت الجميع الى حيث تعودوا ان يلتفتوا اذا ماسمعوا مثل هذه الصيحة ، التي كانت تسمع كل يوم تقريبا ، ولكنهم لم يروا يده تشير الى محمد الديب من البلدة ذاتها ، او الى اولاد ضيعة القصيبية ، ولا الينا نحن ابناء ضيعة اخرى ، وانما رأوه يشير اليها هي .. الى كتفها.

حاول المعلم ان يكذب بقوة وهو لايزال على كرسيه وراء الطاولة مما يلي الباب ، ولكن حرتيش وضع يده على القملة .. وهي تسعى لتفرز نفسها في ثنية المعطف البرتقالي الثمين .. وقال للمعلم : « تعال.. انظرها .. كحلاء مذنبة ..! »

وقبل ان توجه هي اي اتهام .. وقبل ان تدافع ، اندفعت في البكاء.. فقام شقيقها من الصف الرابع .. وجاء الاخر من الصف الخامس ، وكادت تأتي الام ايضا من البيت .. وربما كانت قد اتت .. فقد اخرجنا نحن من القاعة ، لنسمع صراخ الزميل بعد فترة ، ثم رأيناه يخرج من الباب حبوا على يديه وركبتيه وقدماه مرتفعتان الى الاعلى كساقي بعض الجنادب ، ولكن لسانه منطلق باتهامات جريئة شنيعة .. ويتهدد المعلم في القريب العاجل .. ثم اطلقت الصفارة بغضب .. وبعد ان وقفنا في الصفوف قال المعلم بان حرتيش استحق هذا العقاب لانه نقل القملة اليها من تلميذ اخر .. ثم قال : « كل تلميذ يوجد عليه قملة بعد اليوم فهو مطرود من المدرسة طردا نهائيا .. فكونوا على حذر !»

كان لنا ـ ابن خالتي وانا ـ نصيب وافر منها هي بالذات ... فقد كانت المدرسة تترك مفتوحة لنا في الظهيرة لنتناول طعام الغداء الذي كنا نحمله في الكيس المربع المفتوح من الاعلى ، مع الدفاتر مع ماأعطيناه من كتب ، ونعلقه بالكتف ، او اذا كان الهواء شرقيا جعلناه بعد العنق مما يلي الكتف الثانية .. ثم نضعه في « درج » المقعد الى ان ينصرف التلاميذ فنخرج ارغفة الشعير السمراء التي يرسم فيها القش خطوطا كملامح النورية الجذابة ... ومن فوقها الادام الذي اكثر مايكون زبدة لاتخلو من صلابة .. وكانت اول مرة تخرج فيها من البوابة فوقفت لحظة كالفارة التي ترى صاحب البيت .. وكانت تأكل شيئا ما .. التفتنا اليها ، ولكنها رجعت واغلقت البوابة .. ولا ندري ان كانت قد سمعت دعوتنا لها لمشاركتنا ذلك الطعام .. ام ان صوت اغلاق البوابة السريع كان اعلى من اصواتنا .!

وفي بعض الايام كنا نتقاسم الطعام مع اولئك الذين يحرمون من الغداء ويبقون تحت حراستنا .. وفي ذات الوقت نمنع ادخال الطعام الذي تأتي به امهاتهم خوفا من المعلم .. ولكن هذا لم يمنع بعضا منهم في احد الايام ، وكانوا حوالي الستة ، ان يكمنوا لنا في طريق العودة ويفاجئونا برشق الحجارة وهم يقولون : « يافلاحين .. ياأولاد الفلاحين انتم تأتون من الضيعة لتقفوا علينا حراسا .. ثم لتطعمونا خبز الشعير طعام الحمير .. كلوها .! »

وجاءت مرة ثانية .. اقتربت اكثر واكثر حتى وضعت يدها على المقعد الذي ناكل عليه ، ولكنها لم تقبل لقمة بالرغم من اننا غمسناها بالزبدة جيدا .. وبالرغم من ان عينيها كانتا ثابتتين بشدة على ما أمامنا ..

ظننا ها ذهبت كالعادة .. ولكنها مالبثت ان رجعت وقالت :

ـ ماهذا الذي تاكلونه ؟

ـ محشيات بالقريشة البصل السمن !

ـ هل هو طيب ؟

وفتحت عينيها كالريض الذي تجرع علاجا مريحا .. وعادت تقول :

ـ ومن اين تشترونه ؟

ـ اننا نصنعه في البيت ولا نشتريه ..!

ـ ساخذ لقمة لجدتي .. فانها تحبه ...

ثم لم تلبث ان عادت ضاحكة ... وقالت لي :

ـ هذا اخوك ؟

ـ ابن خالتي .

ـ ولكن اسم ابيه كاسم ابيك تماما وهو اسمر مثلك ... واحيانا شرواله ابيض مثل شروالك .. ثم طعامك مثل طعامه .!

ـ كلانا نشرب من ماء واحد ...

ولكن الرباط المباشر مالبث ان انفصم .. فقد نقلت الى الصف الرابع نظرا لكبر سني خسر ظهري هذا الراكب الخاص .. وصار وقت الغداء هو كل ما انتظره لا لاكل وحسب ، وانما لتأتي الينا هي .. وكانت تنقل الينا اعجاب امها وجدتها بلذة طعامنا ونظافته .. وتقول ، بل لعلها تردد ماتقوله الام والجدة : « كيف يقولون بان الفلاحين لايجيدون صنع الطعام !. »

وتوقفت افواهنا ذات مرة .. اذ جاءت الام بالذات ، وكان غذاؤنا يومئذ لحما مسلوقا ونقانق ... فقالت :

ـ هذا اللحم طيب .. هل تأخذونه من السوق ؟

ـ لا ... امس كان عاشوراء ..

ـ ها ... هل انتم اولاد مشايخ ؟

ـ ....

ـ ألا يحسبان ؟

وأجبت انا :

ـ بلى ..! ان لدى زوج خالتي « حكمة »

ـ ويكتب حجابات ؟

ـ نعم ...

ـ هل يأتي الى هذه البلدة ؟

ـ انه في الفراش ... مقعد ..

وفي اليوم الثالث ارسلت اليه ردا على الحجاب الذي جئناها به شيئا من حلوى لانعرف اسمها وقد اكلنا اكثر من نصفها في الطريق ..

كان مدير المدرسة في بعض الايام يرجع قريبا من خروج الطلاب .. وجهه احمر وملامحه زاخرة باشياء كثيرة مختلفة ، ان كان كل شيء يعطي لونا خاصا في وجهه الذي يكون في ذلك الحين مائلا الى الغضب ... ولست ادري لماذا كنا نخرج اثر دخوله ونحمل ماتبقى من الطعام .. ومعظم الطلاب كانوا يرجعون وهم لايزالون ينهشون الطعام ليشاركوا بلعب الكرة الصغيرة الوحيدة التي كان يملكها شقيقها الثاني .. ولكنه لايسمح باللعب الا للذين يرضى عنهم .. او يدفعون مقابلا من الحمص او مايشابه.

اشتركت لاول مرة باللعب .. ظننت ان اللعب بالكرة كاللعب بالتكروعة

على بيادر الضيعة ... لايحتاج الا الى عصا .. ثم ضرب التكروعة الحجرية المكورة كمح البيض .. ثم اطلاق الساقين للريح.. وكان لنا قوة الموج .. فاذا ماسقط واحد سقط فوقه الاخرون كعربات القطار الذي يخرج عن الخط الحديدي ...

وكنت اخر من نهض لاني كنت اول من سقط ، ولم انظر الى ماوقعت عليه ، بل نظرت الى الاعلى لارى في اي جهة صارت الكرة ... ولكن عيني جمدت ... جمدت .. جمدت على رجل يقف على حافة الرصيف المرتفع الذي يمتد امام المقهى وكانه تمثال الحرية في امريكا او كولومبوس وهو يشير الى البلاد التي اكتشفها ... مسكني بقوة عينيه وبشاربيه الكثيفين .. وكرشه من امامه كانه بلكون مستدير في بناية من الهندسة الحديثة .. واخيرا تحركت شفتاه .. قال : « ولك مع من تلعب .. هؤلاء مثل اولادك ! »

عندئذ نظرت الى الخشبات اللواتي نصبن في طرف الباحة على مسافة متر من الحافة التي وقف عليها ... ويمتد عليهن اسلاك شائكة لتحمي البصل المغروس داخلهن .. وكن قد سقطن جميعا لان وقوعي كان على اقواهن ارتكازا في الارض .!

اعتبرت هذا بيني وبينه .. ولكن ماجرى بعدئذ كان اشد ايلاما ..

كان بعد الظهر .. وقد نقل الصف الرابع الى قاعة الصف الخامس التي ترتبط مع الاولى ببوابة داخلية .. وتشاء الصدف ان لايجيدالصفان تسميع الدرس الفرنسي الذي يختص فيه المدير .. فما كان منه الا ان فتح الباب الخارجي ...وامرنا ان ياخذ كل واحد بيد رفيقه ويحني ظهره قليلا ليشبه الحمار .. ثم يدعو ذلك الرفيق : « تشو .. تشو . تشـو ... »

خرجنا في سلسلة الى الباحة ... ثم دخلنا القاعة الكبيرة .. لندور في الممر بنفس الكيفية .. ونردد نفس الكلمات ..

انفجرت العاصفة في القاعة .. ولم يكن ضحك الاطفال في ارجلهم ، كما يقول احد علماء النفس ، وحسب .. .وانما كان في كـل شـيء : بايديهم .. بافواههم ، وبالمقاعد ايضا ...

وكنا نحن نضحك ... وازداد الضحك ، فقد امر المدير بذلك ... ثم طلب الى كل واحد منا ان يخبر بصوت مرتفع لماذا استحق ان يمسخ حمـارا ..!

ومن مزايا الحمير ان تحفظ طريق العودة مهما كان خطرا ... وكان الخطر في رواد المقهى وصاحب المقهى .. اذ خرجوا جميعا الى حافة الرصيف .. وصدورهم تكاد تنشق من الضحك .. وكان تمثال الحرية يقول بصوته الجهوري : « ولك هنا اصطبل او خان ؟! »

كنت في اخر القافلة .. راسي منخفض .. ولكنني سمعته يقول : جلالك الابيض مائل يابتاع كفر شاغر .. شو ما في حد يمسك بدنبك .. ما في حد من ضيعتكم بالطاحون !

وكانت كل امراة واردة الى العين التي تتدفق في طرف الباحـة الجنوبي.. او كل امراة راجعة في الباحة التي هي طريق في نفس الوقت .. كانت تضحك .. وكانت امراة قصيرة .. ثيابها نظيفة وفي صوتها خفة ساحرة .. كانت تقترب وتقول لي ايضا : « لاخفف اللـه عنك .. الم تقنع حتى جئت الى المدرسة وصرت حمارا .! » كانـت زوجة الرجل الذي انفقت عنده ثلاثة اشهر لتعلم الكندرجية .. ثـم هربت منه الى المدرسة بالرغم من تهديده بانه سيحمل مدير المدرسة الذي يمت اليه بقربى نسائية على طردي ، وتارة يقرينني بان يترك لـي اجرة الاحذية التي اقوم بترقيعها ..!

ولكن هذا لم يكن الا الفصل الضاحك في المسرحية . اذ لم يكد ياخذ بنا الجلوس حتى تناول المدير قضيب الرمان الذي جاء به وهيب مـن بستانهم القريب وأخذ يدعو كل واحد .. فيقف امامه يصرف « فـرب أفـوار » .

وكان التلميذ اول ماينظر الى القضيب .. والى وجه المدير الـذي يبدو كالمدفاة الكهربائية المتوهجة .. ثم لايعود يتجاوز « فوزافي » .

صار الاخرون لا ينتظرون ان يسالوا .. بل يخلعون احذيتهم ويركعون على المنبر الذي تقوم عليه الطاولة والمدير ... كانوا يبكون سلفا ..فالمثل يقول : « لم تمت .. ولكن الم تر من مات . » .. وكانوا يتضرعون ... ولكن ذلك لايزيدهم الا ضربا ولا يزيد الضرب الا شدة ..!

وكانت المتناقضات ... فهؤلاء الذين يبكون ما ان يخرجوا مـن تحت الفلقة وياخذوا مكانهم ، حتى يخفوا رؤوسهم ويضحكوا .. ومـن يستطيع ان لا يضحك من وهيب الذي كان يأكل حصته بالبقية الباقيـة من القضيب لانه كان لا يأتي الا بقضيب واحد في المرة الواحدة !

اخذ الضرب يخف بعد التلميذ الخامس عشر .. ربما لتعب المديـر وربما لشفاء غيظه الذي كثيرا ما كان يرجع به بعد ظهر كل يوم كانه يغضب في البيت وينتقم منالتلاميذ في المدرسة !.

وقطعت المسافة كلها ... ما يزيد على النصف ساعة ، مـن المدرسة الى الضيعة ، وانا اعيد لابن خالتي اعجوبة نجاتي من الضرب .. وكما كنت اخر حمار في القافلة، فقد كنت اخر تلميذ يسالني وهو يرفع المسطرة : « كس كسا » ؟ .. واصابت رمية غير الرامي !

* * *

بقيت الطريق لي وحدي .. فابن خالتي ترك المدرسة ليساعد اهله في الاعمال الزراعية التي تكثر بمطلع الربيع .. وكذلك هي بقيت لي وحدي ... صارت من حين لاخر تاتي بنصيبها من الطعام ... وتضعـه بجانب طعامي ، فاتناول منه ، طيبا او غير طيب ، اذ كان ابي في بعـض احاديثه يوجب معرفة مصدر الطعام ، ولكنها هي تصر على ان تنفرد بطعامي ..

مرة بعد مرة صارت تسالني عن الضيعة .. فاصف لها الجدايـا والحملان والعجول وسقي البقرة من العين .. ثم الحمام الذي نملـك منه خمسين زوجا والعصافير التي تبني اعشاشها في السندياتة الكبيرة التي تظلل البيت .. كانت تقف عـن الطعام فترات .. وتقـول : « يـا ابت انا مثل هذا .. فهل تاخذني معك فالعب بالجدايا .. واركض وراء العجلة .. وآتي بزوج حمام ؟ »

كان الربيع في ريعانه ... واذا كانت تلك المنطقة تحمد لشيء فهو هذه الخضرة التي تكسو كل مكان ، وتلك الازهار التي تتخلل الخضرة حتى لكان نسيجا ساحرا انتشر على السفوح والاودية والجبال .. وانعكست خضرته وازهاره على السماء ..

وعرفت التجارة لاول مرة .. شاهدت التلاميذ يعلقون خيطا في حشرة كنت اعرفها باسم « الزمقاع » .. وكانوا يدعونها بالزيز .. ثـم يدورون الزيز من طرف الخيط ، فتحدث دائرة ذات اطيـاف ذهبية ، ويتصاعد منها نغم شجي كالناعورة الصغيرة التي تبث اغاني الحيـاة في المياه التي ترفعها الى البساتين .. وفي اليوم الثاني اندفعت الـى حومة من الصبيان ، كل يريد ان ياخذ زيزا قبل النفاد .. ولكن شقيقها قال بما يشبه الاسف الساخر : « ليس هذا النوع الذي نريد .. هـذا

زيز خشبي.. انما مثل هذا!» وفتح علبة صغيرة مزخرفة كعلبة التواليت واخرج زيزا يكاد يكون متساوي الابعاد قد رصع جناحاه ورأسه بالذهب ... الذهب الطبيعي الحي .. ذهب الربيع ... ذهب السماء الذي يطير وليس بذهب الارض القابع في التراب !

ولكن هذا لم يمنع ان ابيع الزيز الخشبي بثلاث ورقات بيضاء وللكتابة .. ثم ارتفع السعر الى الخمس وبعدئذ الى العشر .. وصار همي اذا ما انصرفت من المدرسة ان اذهب الى أشجار السماق لاصطاد هذا النوع من الزيز الخشبي ، لان النوع الذهبي لا يوجد الا نادرا كالذهب ... وكان لا يباع ، الا بنقود قد تصل بالمنافسة الى الليرة ..

وفي الصباح كنت اترك السير على الطريق لافتش بين الزرع الغض عن حشائش الضريطة والحلباء وقرون الجدي والزقاق .. وهذه كانت لها حدها ... ادفعها اليها في الظهيرة وقد اصابها شيء من الذبول الذي يزيدها لذة ويزيد رائحتها انتشارا .. ولم تعد تأخذ لامها او لجدتها شيئا .. صارت تأكل كل شيء امامي وتتساءل عن كيفية زرع هذه الاشياء التي لم ترها في حياتها قط .. ولم تذق اطيب منها طعما ورائحة !

رأيتها تمتليء بالاخيلة الحارة ، وبدأت تفيض بالحب للمجهول .. لتلك الضيعة التي تنبت ارضها مثل هذه الاشياء الطيبة .. ونفرت ملامحها لاول مرة ، كأنها اصيبت بالاختناق ، وهي لا تستطيع ان تتخيل اعشاش العصافير التي تبني في السنديانة ، فتقول : « كيف يعلق القش على الغصون .. الا يسقطها الهواء بما فيها من بيض او فراخ ! » وعندما قلت لها بأن شكل العش كفنجان الشاي ، لم يظهر عليها انها فهمت ذلك، او صدقت ان تتمكن العصفورة من صنع هذه الكتلة المتماسكة ... واشتدت الدهشةاذ علمت بأن العش يبني بمنقار العصفور ... فقالت : « العصفورة تبني عشها بفمها .. ولكن الانسان لا يستعمل فمه الا للطعام ..! »

ضايقتها هذه الاخيلة ، فيما يظهر .. وكانت وراء البلدة مما يلي الشرق .. فقالت : « أين هي ضيعتكم ؟ » وهبطت عيناها وراء يدي التي تشير الى الطريق الملتوية على سفح الجبل الذي نقف عليه ، حتى اذا ما بلغت قرارة الوادي ، تصاعدت بالتواء أشد من الاول ... والتفتت الي تسأل بلهجة كان بها بعض التعب: « هناك .. هناك انتم .. كيف نستطيع الوصول الى الجبل .. ان السماء ، كما يبدو ، ترتكز عليه ! »

* * *

كانت اول مرة اشعر فيها بالحياة .. فقد دعيت الى عيد النيروز كما يدعى في اصله الفارسي ، وعيد الرابع ، كما يدعى في الضيعة .. ولم اكن هذه المدة بين الصبيان كالعادة ، حاملا الملعقة الخشبية بانتظار البرغل المطبوخ باللحم ، والمروى بالسمن المذاب بالقشم والمرفق باللبن ، وانما ادخلت الى حيث يجلس الرجال .. وما كدت افرغ من تقبيل ايدي المشائخ منهم ، واجلس على كرسي ، حتى دفعت الي الجريدة التي تأتي باسم ابي ، وتدفع الضيعة كلها بدل اشتراكها باتفاق عقدها المتنفذ الذي كان يرافق صاحب الجريدة ذات الصبغة العشائرية .. كان الجميع ينظرون نحوي بابتسامة زادتني ارتباكا .. اذ ما عسى ان يكون في الجريدة هذه المرة ، بل ما هي الدوافع التي جعلتهم يطلبون الي القراءة ، وكنت فيما مضى احملها الى معظم البيوت ، ولكن احدا لا يصغي لما اقرأ ؟

لعل نظري يضعف عندما ارتبك .. فقلبت الصفحة الثانية .. ولكن شخصا قال : « اقرأ لنا مظاهرتكم .. في الصفحة الاولى .. »

حروف كبيرة لامعة .. في خطوط طويلة : « مظاهرة صاخبة في الدربكيش ! .. » طلاب المدرسة يحملون العلم السوري يهتفون بحياة الوطن ويندون بموقف فرنسا ! » « اجراءات مشددة تتخذ بحق مدير المدرسة »

وانطلقت الجريدة تصف مظاهرة الاحتجاج على فرنسا التي كانت قد وعدت باستقلال البلاد مرة بعد مرة .. ثم نكثت في كل مرة بعد مفاوضات طويلة ... وعينت هذه المرة غابرييل بيو الذي رجع بالبلاد الى ما كانت عليه سابقا .. وابعد الوطنيون من الحكم بعد ان كانوا قد تسلموا شيئا منه .. ثم اشارت الى الاجتماع في جامع البلدة .. والى الكلمات الحماسية التي القيت على المتظاهرين ..

انتهت القراءة التي استغرقت بعض الصفحة الاولى وبعض الرابعة .. ولكن الحاضرين خاضوا بمناقشات فائرة .. بعض يقول : « هل تستطيع سوريا التي لا تملك خرطوشة واحدة ، ان تحارب فرنسا صاحبة الجيوش والطائرات والفواصات ؟ » وبعض اخر يقول : « فرنسا ! لولا الخيانة ، لكان الشيخ صالح العلي رماها بالبحر .. أرضنا جبال ، الحجرة فيها افضل من البارودة .. ولكن الله يلعن الخيانة ! » والذين كانوا قد قضوا شطرا من حياتهم هجرة في الارجنتين .. كانوا يقولون للذين لا يرون نفعا للمظاهرات وصراخ تلاميذ المدارس في الشوارع : انتم لم تروا بلاد العالم .. المظاهرات تقلب الدولة !.. »

وفي اليوم التالي رجعت وانا اتناول « زوادتي ، لقمة وراء لقمة .. لم اكن جائعا ولكنني عندما اغضب اريد تمزيق اي شيء.. كانت هي التي اخبرتني .. كانت على السطح فدنت من طرفه مما يلي الطريق وقالت بأن المدرسة قد اغلقت الى اجل غير معلوم .. وان تحريات واسعة جارية لمعرفة الذين خرجوا بالمظاهرة .. وقادوها بخاصة الذين كانوا يهتفون بسقوط فرنسا .. ولا بد ان يرد اسمها في القائمة فهي البنت الوحيدة التي كانت في المظاهرة .. ثم اضافت بهمس بأن المدير قد اخذ من داره في الليل .. وربما لا يعود ..

وصلت البيت وانا لا اشعر بالطريق .. فقد كنت اسمع الاناشيد والهتافات .. وارى حسنا واسكندر اكبر التلاميذ سنا يخرجان العلم الكبير من المدرسة ويجريان ومن ورائهما التلاميذ في الشارع ، والمدير واقف بالباب يتصنع مناداة حاملي العلم وتهديدهما ان لم يرجعا ... كنت افكر بيوم تان امشي فيه تحت رفيف العلم اردد الهتافات بحياة الوطن وبسقوط فرنسا .. واجد من السلطة ما يمكنني من اغلاق دكاكين البلدة حتى دكان الذي علمني صنع الاحذية .. واهل البلدة ومن يلم بالبلدة من القرى المجاورة يمشون من ورائنا وعن يميننا وشمالنا كما تمشي الام وراء طفلها في اول مشيه .. وامام عيني تلك الشريطةالحمراء التي تخفق في رأسها هي .. في ذلك الشعر الاشقر الغاهي !

* * *

تغير مكان المدرسة .. الاناشيد الوطنية لم تعد تفتتح الدروس كما كانت في السنة الماضية ، زادت حصص اللغة الفرنسية .. وظهرت رعدة قوية في الاكتاف لعلها هي التي كانت تحرك التلاميذ في هذه الباحة الجديدة ، كان يوسف الدرويش في اولهم والاخرون يدورون وراءه كالامواج الصغيرة الحائرة امام ذلك القسم الملحق بالبناء الكبير الذي كانت فرنسا قد جعلت منه مدرسة اعدادية واكمالية اثناء احتلالها للبلاد .. ثم اهملتها عندما لم ترها تخدم اغراضها .. ثم حولت الملحق

الى مخفر للجندرمه ومدير الناحية .. وحولت البناء الكبير الى مدرسة ابتدائية في الطابق الاول .. والطابق الثاني نزلت فيه عائلة مدير الناحية والطابق الثالث ظل للشمس والهواء والسنونو والدوري ... وكان احمد كوي الذي يقوم بالعناية على خيل الجندرمه .. كان هذه المرة واقفا على سلم قصير ويمر بفرشاة صغيرة على زجاج الشبابيك الطويلة ، فيحيلها زرقاء غامقة بعض الشيء.. اما الامواج الصغيرة الحائرة كانت تهدر بصوت واحد وهي لا تزال تدور وراء بعضها بعض.. اصوات فيها طرب الصبيان الذين يهزجون للمطر الاول مهما كان عاصفا وقويا .. الصبيان الذين يهزجون وان كان سيل المطر الى ما تحت ركبهم .. كانوا يهزجون هذه المرة : « الحرب .. الحرب .. جاءت الحرب !»

ولما اخبرت ابي في المساء بأن زوبعة هبت في باحة المدرسة .. وحملت ورقة كبيرة .. فراحت بها في الفضاء مرتفعة هنا ومنخفضة هناك ، وبقينا نتابعها بانظارنا عبر الوادي العريض ، حتى رأيناها تختفي فوق جبل الشيخ موسى في الناحية الاخرى من الوادي قال : « الله يستر ـ هذه ظاهرة غريبة .. المشتري يقترب من المريخ .. الله اعلم حرب !.. »

كنا لا نزال في الكلام .. اذ رفعنا رؤوسنا الى مختار الضيعة الذي دخل وقال : « امسكو حماماتكم .. مدير الناحية نبه على كل المخاتير بذبح الحمام ـ والذي توجد لديه حمامة واحدة لا يلوم الا نفسه ... التنبيهات شديدة .. الحرب وقعت ! »

واستمرت السهرة ... كان في بيتنا معظم اهل الضيعة .. وكان الشبان يضحكون من الحوادث التي اخذ يعيدها الرجال الكبار عن الحرب العالمية الاولى .. والامهات تعقب على ذلك قائلة : « اضحكوا ... ليس السماع كالعيان .. وحياة ذقون ابائكم ايام الحرب صعبة .. الله يذكرها ولا يعيدها ! .»

* * *

راحت ايام المدرسة ! سنة وراء سنة تمر كأن ايامها مسامير حادة طويلة تنغذ من كل عضو من الجسم ... ويداي : واحدة مرفوعة فوق راسي لا ادري لتحميه من شظايا القنابل التي نتوقعها في كل لحظة من الليل والنهار .. ويد ثانية احك بها جسمي واود لو ان لي عشرين يدا اخرى لتشبع شراهيته حكا .. تلك الشراهة التي كانت تفوق شراهتي انا للطعام الذي لم اعد اصيب منه الا حظا قليلا رديئا لا يكفي لتغذيه طفل صغير ، ولكن الجرب يزداد شراهة كلما زدته حكا .. كنت اشعر به يريد ان ياكل اعضائي .. كانه هو حيوان جائع ، وكنت اشعر بأن شدة الحك وسرعته هي الوسيلة الوحيدة لتخليص اعضائي منه .. وهو نفسه كانه حرب شنت في كل جسد .. حرب بدأت في السنة الثانية لتلك الحرب التي بدأت سريعة كهذا الجرب ، ثم اخذت تتباطأ كأنها تخضع البلدان التي احتلتها اولا ، كما تباطأ ذلك الجرب ليمضغ بتأن ثقيل الاجساد التي احتلها بسرعة !..

لم أعد اسأل عن شيء .. فالحكومة تحتكر حتى الحرير الطبيعي الذي ما زال العنصر الاساسي في حياتنا الاقتصادية ، نحن ابناء هذه المنطقة القريبة من شاطيء البحر .. والحبوب التي ننتجها لا نملك حق الشبع منها ، فانها تقدر في الحقول ثم تقدر ثانية على البيادر ويوضع عليها الحراس .. واذا ما ذهبنا بشيء منها الى الطاحون ، فلا نستطيع ذلك الا بالحصول على بطاقة حمراء من الدولة يذكر فيها الكمية ونوع الحبوب والدابة التي تحمل عليها ، ثم ساعة التحرك من البيت واسم الطاحون التي يذهب اليها .. والا فيؤخذ الحمار الذي يحمل الحب بما عليه ويؤخذ صاحبه ايضا ..

والحمام الذي كان يطير في الفضاء ويلتقط الغذاء من الحقول ... ويحوله الى افراخ ، لم يعد يظهر في الفضاء.. وهو الاخر قد نقص الى اقل عدد لا يزيد على حفظ النوع .. هو الاخر متهم بالهاء الحمام الزاجل الذي تكلفه الدولة بنقل البريد العسكري السري !..

* * *

كانت نفسي خالية من الماضي كله .. البلدة هي نفس البلدة ... بضعة شبان يسيرون في اخر الشارع الذي يعتبر للبلدة بمثابة المصران الاعور .. كانوا من الذين اعرفهم .. واحد منهم فقط يميل الى الطول غير المنتظم .. وفيه نحافة مرتخية ، قدمت اليه كشاعر .. وقدم الى كساتق سيارة .. التفت اليه بقوة .. لا شيء فيه من ذلك المخطط الذي كان مخطط عظمة لشخصية فذة.. حتى الشامة الساحرة التي كانت في طرف شفته العليا ، بدت جافة صغيرة كانها احدى الطفيليات على برتقالة صغيرة هزيلة ... وعيناه مملوءتان بالنظرات التي تحمل معنى الخسارة فوق كثير من المعاني .. اهذا هو الذي كان رئيس الصف الرابع هذا هو الذي كان يضربني ذات مرة ، مع صغر سنه ، في باحة المدرسة... فاضطررت انا الى السكوت .. وهو يعيرني بأني فلاح .. وكبير السن وحمار في الصف لا تكاد شقيقته تنزل عن ظهري ..!

وانصرف الي دون الشبان الاخرين .. لم يدعني اسأله عن شيء.. لا يزال شديد الذكاء كأنه ادرك كل ما سأسأله عنه .. فالاب الذي سافر الى المهجر ليبقى بضع سنوات .. مات اثناء الحرب .. وطالت الهجرة الى الابد .. والجدة ماتت في طرابلس .. والشقيقة الكبيرة التي كانت تنسج الصوف ماتت في الولادة ايضا .. والشقيق الذي كان رئيس الصف الخامس ، هاجر الى البرازيل بعد ان امضى ثلاث سنوات في جيوش الحلفاء.. وكأني اشفقت من شيء فسألته :

ـ وسلمى ؟

ستتقدم هذا العام لامتحان البكالوريا فرع الفلسفة .

طلب شيئا من شعري ، فانه شغوف بالمطالعة كما قال .. ولم اكن احمل شيئا من ذلك الشعر لا في ذاكرتي ولا في جيوبي ، لاني اخاف من السخف الذي يصاب به بعض الشعراء فيقرأون شعرهم في غير مناسبة ، ولكن احد اولئك ، وكنا قد صرنا قريبين من بيته ، احضر مجلة تهرأت من كثرة التداول ..ووضع عينيه على عنوان بحرف كبير « من روائع شعر الجلاء !. »

كانت القصيدة قد القيت في اول مهرجان لجلاء فرنسا عن

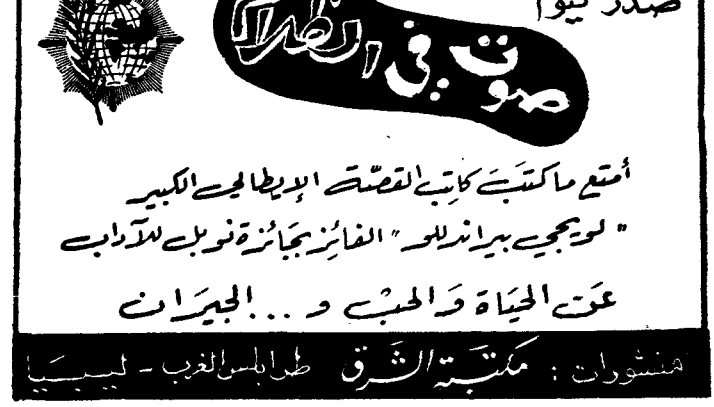

البلاد .. فرنسا الدولة ذات الجيوش والطائرات والغواصات قد اجليت عن سوريا التي كانت تقاوم بصدور ابنائها تلك الالات الجهنمية .. فرنسا التي قطعت المفاوضات .. والغت معاهدة الاستقلال التي احتفظت لها ببعض القواعد العسكرية وببعض الشروط الاقتصادية والثقافية في سوريا .. ست سنوات فقط من تاريخ الالفاء كانت فرنسا تجلو بلا قيد ولا شرط .. والبلاد التي كانت فرنسا تحظر كل شيء على اهلها.. صارت البلاد ـ صار اهلها ـ يحظرون على فرنسا حتى مجرد التفكير بشيء فيها !..

* * *

سنة بعد سنة تبدلت المصاعب ... كبرت المشاكل كما كبرت أنا ،ولكن مشكلة صغيرة كانت دائما وابدا تريد ان تجعلني صغيرا .. صرت في الجامعة .. وكانت الجامعة في مخيلتي وفيما أقرأه عالما خاصا لبناء الشخصية التي يفكر فيها الانسان .. كنت أعتقدها التحرر من كثير مما تحفل به الدراسة السابقة ، ولكن التصريف اللعين برز لي في وجه جديد وفي لغة قديمة ـ لغة الامبراطورية الرومانية .. ولم يكن من فرق بيني يوم كنت اصرف الفعل « ضرب » العربي وفرب افوار الفرنسي.. ثم فرب توبي الانجليزي وبيني الان بتصريف الافعال في اللاتينية ، الا انني في الجامعة استطيع ان اقول للاستاذ « اكسكيوزمي » دون ان اخاف ان تركب الزميلة ناديا التي ترفع اصبعها كما كانت سلمى ترفع اصبعها في الصف الثالث الابتدائي ، ان تركب على ظهري وادور بها في القاعة، وان كانت سنوات الرسوب التي تراكمت على ظهري اثقل من ناديا فيما لو ركبت عليه !

واشد ما تكون الذكرى الحاحا ، عندما يقف الانسان في الطريق التي يأخذ على نفسها شقها ، يقف كالشيخ الذي بلغ من العمر عتيا ولا يعود يبصر الا ما وراءه .. كنت استعيد هذه الذكريات مع فتاة من البلدة .. كانت تضحك مني .. من ذكرياتي من الجانب الذي استعيدها منه .. الجانب الذي لا يظهر الا الدخان فوق النار التي تحترق ببطء في حطب اخضر او مبتل بالماء.. واشارت بيدها ان اقف لتوفي كل جملة حقها من الضحك ، كما كانت تقول ... ولكنها هذه المرة اوقفتني لشيء اخر .. اوقفتني لتقول: « على ذكر سلمى .. دعني اخبرك شيئا عنها ... ارايت عندما دخلت المرة الماضيه ، فقامت ثلاث فتيات كن عندي.. كانت سلمى احداهن .. ولما اخبرتها بعدئذ بانك انت الذي دخلت ، اسفت لخروجها .. احقا كنتما معا في المدرسة ..؟ كنت انا لم اولد بعد .. انها تحفظ بعض قصائدك .. وقد دفعت اليها ببعض اعداد المجلة التي تنشر فيها من شعرك .. ضحكت كثيرا لهذه الروح الساخرة وشبهتك ببعض الشعراء الفرنسيين... لا تزال هي ترسب في البكالوريا .. الحب والدراسة لا يجتمعان ، انهما الماء والنار في يد واحدة .. هي تدعي بانها صارت مدرسة .. كذابة .. غليظة .. فمها كبير والمرأة كثيرة الكلام مع ان افواه الكثيرات منهن صغيرة .. مسكينة ماتت امها .. اختها الصغيرة تزوجت قبلها .. هي تقول بانها تخطب كل يوم .. ولكن هكذا تحلم .. دعاية تغطية للاوراق !»

* * *

كنت الوك اخر لقمة من تلك الكعكة المنتفخة في ثلاثة ارباعها والدقيقة في الربع الباقي كذلك النوع من الاقراط النسائية .. لم اكن انتظر الباص في هذا الموقف لاذهب الى مكان معين.. كنت التفت كالجمل الذي اضاع رفاقه .. بلعت اللقمة لاخفيها ، ولكن شيئا من الغنة بقي في صوتي وانا ارد على هذا الذي اخذ يستقصي بالسلام بلهجة لبنانية ساحرة .. وكان في ردي من الحرارة ما يخفي جهلي بمعرفته .. وهي الحالة التي اضطررت اليها بعدما لم اعد اعرف شخصا انقطع عني مدة مهما كان موقعه مني.. والتفت الشاب الى جانبه قائلا :

ـ اختي سلمى .

ثم حول يده نحوي معرفا :

ـ الاديب الكبير .. الشاعر

فقالت بابتسامة اكبر من فمها :

ـ اعرفه ...

والتفت الي بالباقي :

ـ كنا معا .. اظنك لم تنس ؟

تذكر ظهري قبل ان يتذكر رأسي..! كان الذكرى تنبعث من حيث يتألم الانسان ...

سلمى .. ارتفعت نظراتي من حيث تقف قدماها على الرصيف.. الى الشعر الذي لم يعد اشقر فاهيا .. وقد اختفت الشريطة الحمراء.. انها طويلة ممشوقة كانها السارية التي حملنا عليها العلم في اليوم الذي برز في هذه الذكرى .. وجاء الباص فصعدا فيه .. وبقيت واقفا افرك عيني كأنما مر بهما دخان حاد ، دخان الذكريات المبتلة بالالم البطيء الاحتراق !..

دمشق

يوسف احمد المحمود

«من جمعية الادباء العرب»